

البراء بن مالك

المجاهد الزاهد

بقلم :درويش الزفتاوى
رسوم داخلية: مى نـوار



تصميم الغلاف: شريفة أبو سيف

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

○ فِى نُور الحقِّ يتبارَى الأقويَاء، ويسارِعُون إلى مغْفرةٍ من الله وجنَّاتٍ عرضهَا السموَاتُ والأرض، ومنْ هؤُلاءِ المؤمنين الأقويَاء البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المجاهِدُ العَظِيمُ صاحبُ رسول الله ﷺ والمستجَابُ الدَّعوة.

وقد جَاء فى صحِيح البخَارى أنّ رسول الله ﷺ قَالَ: «رُبَّ أشْعثَ أغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لايُؤْبَه لَهُ لَوْ أقْسَم عَلىَ اللهِ لأبَرّه».

كانَ البراءُ بنُ مالك زاهدًا فى الدُّنيا، رَاغبًا فى الآخِرَةِ ونَعِيمهَا ولمْ يفكِّر فِى نَفْسِه قط، ووهَب نفسَه وروحَه للجهَاد فى سَبِيل الله تعالى. وكان أملُه منْ وَرَاءِ جهَادِه أنْ ينالَ الجنَّةَ بعْد الاستشْهَاد. وقدْ كانَ شعَارُه فى المعَارِك الّتِى يخُوضُهَا: (الله والجنة).

أسرة البراء بن مالك

كانَ للبَرَّاءِ أُمٌّ هى منْ خيرِ الأُمَّهات وأشْجعهن اسمهَا «أمُّ سَلِيم» بنتُ ملحان، اشتهرتْ باسم (الرُّميْصَاء)، ماتَ زوجُها مالك أبى البراء وهُو كافرٌ مما أحزنَ الرُّميْصَاء، وقَدْ تركَ لهَا ولدَيْنِ صغيريْنِ هُما البرَّاءُ بنُ مَالكِ وأنَسُ بنُ مالك. فأَخذَت الرميصَاءُ ابنهَا «أنس» وكانَ فِى سنِّ العَاشِرة إلى رسول الله ﷺ وقَالتْ له:

- يارسُـول الله هذَا أنَس ولَدِى قـدْ وهبتهُ لكَ خادمًا وهُوَ غلامٌ قَارِئٌ فادْعُ لهُ يا رسولَ الله.

فدعَا له رسُولُ الله ﷺ بأن يباركَ الله فى عُمره، ويباركَ له فى رزْقه، ويفقهَهُ فِى الدِين.

وقد اسـتجَاب الله لرسُـوله ﷺ؛ فباركَ لأنـسٍ فى عُمره، فعاشَ تسـعةَ وتسْـعين عامًا، وبـاركَ لهُ فى رزْقِـهِ فأَصْبحَ يمتلِكُ حَدِيقتيْن مَليئتيْنِ بالفاكهَةِ والثمَار، وباركَ له فى علْمه فحفِظَ عن الرسول ﷺ القرآن الكريمَ، وحفظَ عنْه بعضَ أحَادِيثه الشّرِيفة فأصبح يرْوِى عنْه الأحَاديث، وصارَ الناسُ يثقُون فى روَايته لأحَاديث الرسول ﷺ.

كانتِ الرمَيْصَاءُ أمُّ البراءِ بنِ مالك،وأنسِ بنِ مَالك، صَاحِبة الفضْلِ بأنْ يشـبّ ولداهَا أنسُ والبراءُ علـى التقْوى والإيمان والشـجَاعة، والتضْحِيةِ وإنكَارِ الذّات. فقَدْ أحْسَنَت تربيتهُمَا وتوجيههُمَا إلى الطّرِيق السَّليم، حتَى كانَ كلُّ مسْلمٍ فى المدِينةِ يتمَنّى لَوْ كانت الرميْصَاءُ أمًّا له؛ لِما امتازَتْ بِه منَ الشجَاعة، والأخـلَاقِ الكَريمـة. ويكفيهَا فخْـرًا أنهَا حاربتْ بسـيفهَا معَ رسُـولِ الله ﷺ ضِدَّ المشْـركينَ، وليسَ الناسُ فقط هُمُ الذينَ أُعجِبُـوا بالرميصَـاء، بل إنَّ رسُـولَ الله ﷺ أعْجِبَ بحُسْـنِ تصرُّفها، وسببَ ذلك أنّ الرميصَاء تزوجَت بعدَ موتِ زوجهَا بأخيه أبى طلحة.. واشترطَت عليْهِ أنْ يسلمَ إذا أرادَ الزواجَ



منْها، فرضخَ لطلبهَا وأسْـلمَ وتزوجهَـا ثم أنْجبت الرميصَاء مِنْ أبى طلْحة غلامًا خصّه الله بالوسَـامة وخفّةِ الظّلّ، ممَّا جعَـل زوجهَا أبَا طلْحة يحبُّ هذَا الغلامَ حبًّا كَبِيرًا، وفى أحَدِ الأيـامِ مرضَ الغلامُ، فخفقَ قلـبُ أبويْه.. الرميصَاء، وأبِى طلْحَـة، ثم مالبثَ أبُو طلحَـة أنْ تغيَّبَ عن المنزِلِ فى تجارةٍ له.. وأثناءَ ذلـك ماتَ الغُلام. وأدركَـت الرميصَاء أنَّ عليهَا واجبًا نحوَ زوجِها، وأنه يجبُ ألا تدعَهُ يُصدمُ بخبرِ وفاةِ ابنِه عندَ عودَتهِ منَ السّـفَر، وأمرتْ أهلَ بيتهَا ألا يخبرُوا زوجَهَا بوفَاة ابنِـه ويدَعُوا الأمرَ لهَا. ثم أخذَت الطفلَ ووضعَتْه فى مكَانٍ جَانبـى منَ البيـتِ بحيثُ لا يرَاه زوجُها لوْ عَـادَ فجْأةً، وبعد سـوَيعَاتٍ أمرَت ابنهَـا أنسَ أنْ يقومَ بدفْـنِ الغـلاَمِ بمعاونَة الجِيرَان؛ فَفَعَل.

وحينمَا عادَ زوجُها استقبلَته وقدَّمت لهُ الغذَاء، وجَامَعَهَا فى تلك اللّيلةِ وحينمَا سـألهَا عنِ الطفْل قالتْ: هو فى أهْدَإ حَال، وانتظَرَت حتّى انتهَى منْ غِذَائه وقالت:

- يا أبَا طلْحَة.. إنْ كانَ أحدُ الناسِ أعْطَاكَ أمانةً وأودعَهَا عنْـدَك، وسمحَ لك أن تتمتّعَ بها حَتّى يسـتردّهَا. ثم جَاء فِى يومٍ وطلبهَا.. أتمنعُهَا عنْه؟

فأجاب:

- بل أقدمهَا إليْه راضِيًا، وأشكُره لأنّه ترَكَنِى أتمتعُ بها زمَنًا.

قالت :

- إذنْ لقـدْ أخَـذَ الله أمَانَتَهُ، فاحْتسِـبْ ابنـكَ عنْدَ ربّه..

فاندهَشَ أبُو طلحَةَ وقال:

- أماتَ ولدِى وأنتِ تُغَذيننى، والله لأشْكُونَّكِ لرسُولِ الله ﷺ :

وذهبَ أبُو طلحَةَ إلى رسـول الله ﷺ وقـصّ عليْهِ الخبرَ، فابتسـمَ الرسُـولُ ﷺ مُعْجبًا بتصرُّفهَا الحكيمِ، ثم دعَا لهَا ولزوْجِهَا فقال ﷺ : ((اللّهم بَارِكْ لهمَا فى ليْلتهِمَا)).

فحمَلَت الرميصَـاءُ فى هذِه اللّيْلةِ وأنجبتْ بعدَ ذلِكَ طفْلاً مباركًا يقالُ أنه لما كبرَ وتزوَّجَ أنجبَ عَشْـرةً كانُوا منْ حُفَّاظِ القرآنِ الكَريم.

وقـدْ ضَرَبـت الرميصَاءُ مثـلاً نادِرًا فى الصَّبرِ وضَبْط النفْسِ ممَّا يـدلُ علَى رجَاحةِ عَقْلِ هذِه السـيِّدةِ الفاضِلَة، وسلاَمةِ تفكيرِهَا.

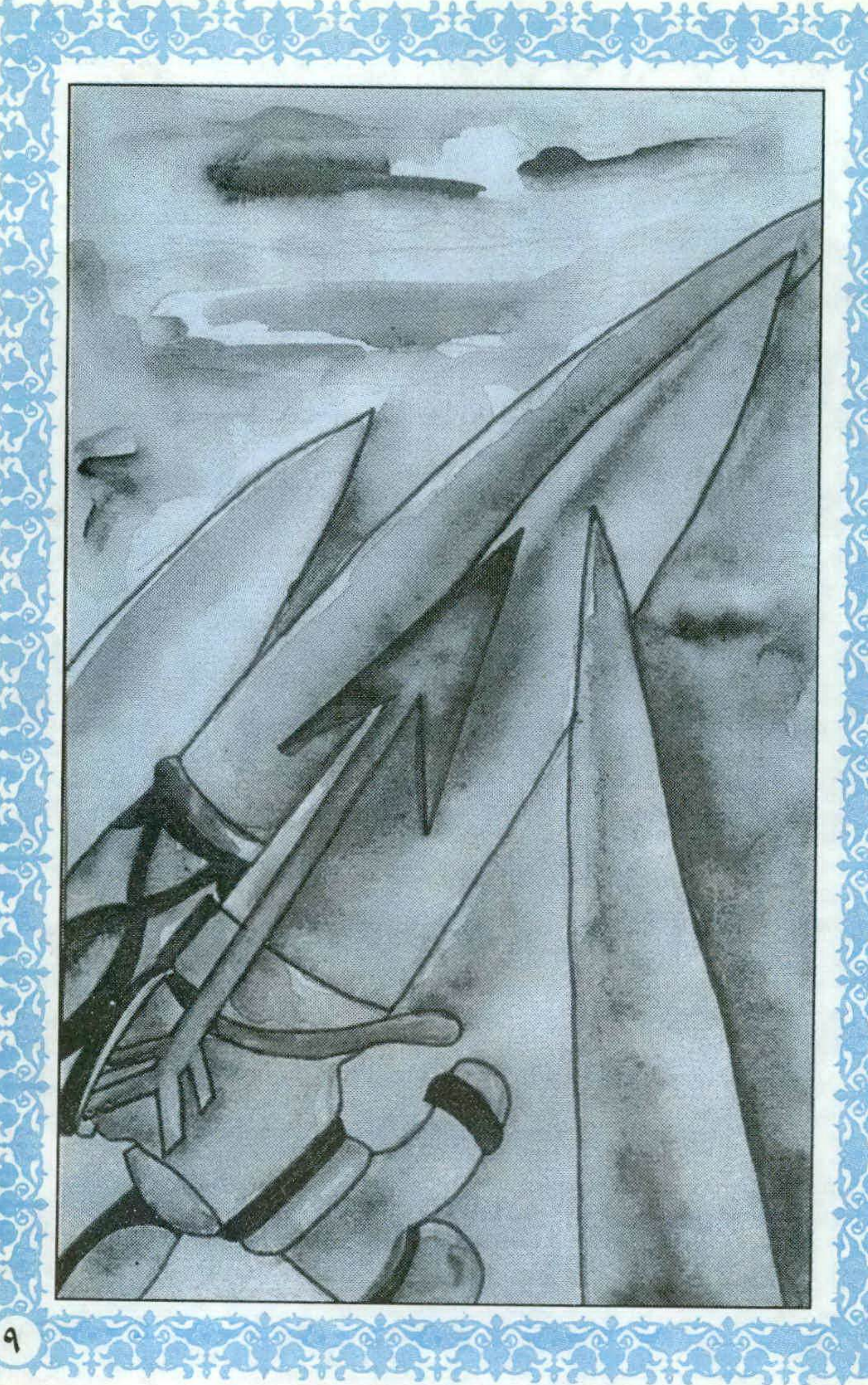
ولهَذِه السيّدةِ المؤْمنةِ موقفٌ آخرُ معَ رسُولِ الله ﷺ ، يدُلُّ علىَ الشجَاعةِ والإقْدَام.. وكَان ذلكَ فِى غزْوةِ (حُنَيْن) حيثُ ذَهَبـت الرميصَاءُ معَ زوجهَا للمعْرَكةِ تحملُ الماء إلى المقاتلينَ وتسْقِى الجرْحَى، وتضمدُ جرَاحَهُم.

وفِـى هذِه المعرَكةِ اغترَّ المسـلمُون بكثرتهِـمْ وقلَّلُوا منْ شـأنِ عدُوِّهم، فانهزمُوا، فوقفَ الرسـول ﷺ يصدُّ الكفارَ وحْده.. ثم هرعَ إليْه قلةٌ منَ المسْلمين الأبطَال مثْل أبِى بكْر الصِّدِّيق وعُمَر بـن الخطاب وعلى بنِ أبِى طَالب، وآخرين، وانتبهَت الرميصَاءُ إلى رسُول الله ﷺ فوجَدَتْهُ فى هَذَا الموقفِ الصَّعْب، فألقتْ بالضَّمَادِ والماءِ منْ يديهَا، واستلّت خنجَرَهَا وأخذَت تقاتلُ بِه الكفَّارَ مع الرسُول ﷺ، وأصحَابِه المغَاوِير، حَتَّى كتبَ الله النصْرَ لرسُولِه وللمُسْلمِين.

وهـذَا الموقفُ الذِى وقفتهُ الرميصَـاء أمُّ أنسِ بن مَالك، والبراءُ بن مَالك مثال آخر يدلُّ علىَ الشجَاعةِ والإقدَام، وقدْ ورثَ عنهَا ابناهَا أنسُ والبراءُ الصِّفَاتِ الحسـنةِ، كالشجاعَةِ والصَّبْر والزهدِ ورجَاحَةِ العقلِ.

هذِه كانت قصَّة الرميصَّاء التِى أنجْبَت بطلنَا العظيمَ البراءَ ابنَ مالك، الَّذِى خَاضَ الحروبَ ضِدَّ الكُفَار مع الرسول ﷺ، وعـاشَ حيَاتَـه يعمـلُ لآخرَتـه ولايطلـبُ إلاّمرضَاة الله ورسُوله ﷺ.

وكان رسُـول الله ﷺ يعـرفُ للبراءِ شـجَاعتَه وإقدامَه، ويعرفُ عنْه أيضًا اندفَاعَه فى الحرْبِ بلاَ تردُّدٍ، وكانَ شِعَاره أثناءَ قِتَالِه: (الله والجنة).



ثُمَ يأْتِى يومٌ يخبرُ فيه الرسُــولُ ﷺ أصحَابه بأنَّ البراءَ بنَ مالك مستجابُ الدَّعْوة، حيث قال ﷺ «ربَّ أشعثَ أغبرَ ذِى طِمْريْنِ لايُؤْبَه لهُ (لايُهتم به) لوْ أقسَمَ علىَ الله لأبرَّه، منهم البراء بن مالك»

ولكنّ البرَّاءَ علَى الرغم بعِلْمِه أنّه مُسْتجابُ الدعْوةِ كَمَا أخبرَ بذلِكَ الرسُــولُ ﷺ ، لمْ يدْعُ ربَّه طالبًا لنفسِه شيئًا لأنه زهدَ فِى الدنيا، وقدْ وهَبَ نفسَه للجهَاد - فى سَبِيل الله تعَالى والدفاعِ عَنِ الإسْـلَام - وقَضَى حيَاتَــه فِى الجِهَاد، ولمْ تفتْهُ غزوَةٌ أوْ معْركةٌ فِى سـبيلِ الله تعالى إلا اشْترَكَ فِيها، وأظهرَ منَ البطُولةِ والفدَاءِ مَا أدهَشَ الكفارَ أنفسَهُم ونالَ إعجابَ إخوَانِه المسْلِمين.

ويخطرُ علىَ البَالِ سُــؤالٌ: ما دام البراءُ بنُ مَالِك كانَ يعلمُ أنهُ مُسْتجابُ الدعْوةِ فلمَاذا لم يدْعُ لنفْسِه بالغنَى مثَلاً؟

والإجَابةُ.. أنَّ عظمَةَ الــبَراء كانتْ تنحصِرُ فى زُهْدِه فِى الدنيَــا ومتاعِهَا، ولكنَّهُ دعَــا دعوَةً واحِدَةً لنفْسِــهِ، وكانتْ دعوةٌ غَريبة حَقًا وقــدْ تعَجَّبَ لها أصحَابُه، كانَ ذلكَ حينَمَا مَرِضَ وذهــبَ إليْه أَصحَابُه لزيَارتِــهِ، فوجَدُوا المرضَ قدْ نَالَ منْه (أرهقه) فَخَشــوا عليْه أن يموتَ بسببِ مرضِه هذَا،

وقـرأ البرَّاء رَضِيَ اللهُ عَنهُ فــى عيُونِ أصحَابه، علامــاتِ الخوْفِ عليْه فقَالَ لهُم رَضِيَ اللهُ عَنهُ :

- لعلكُـم تخافُون علــىَّ أنْ أمُوتَ منَ المــرض، لاَ والله ، لن أمــوتَ على فِرَاشِــى أبَدًا، ولــنْ يحرِمَنِى رَبِّى الاستشــهَاد فى سَـبِيله، ثم رفعَ يديْهِ إلى السَّــمَاء وقَال:اللهمَ لاتجعَلْ موتِى إلاَاستشهَادًا فى سَبِيلِك.

هذِه هىَ كانتْ دعوةُ البراء أن يموتَ فِى سَبِيل الله، وقد دعَا وهوَ يعلَمُ أنَ دعْوتَه سَتُستجَاب، لأنَ الرسولَ ﷺ أخبرَ عنْه أنه مُسْتَجَاب الدَعْوة.

وفِــى هذِه الأيامِ التى كانَ فيهــا البراءُ مرِيضًــا، انتقلَ الرسولُ الكريمُ ﷺ إلى جوَارِ ربِّه.

وتــولَّى أبُو بكـرٍ الصديــق رَضِيَ اللهُ عَنهُ الخلافةَ ،أمِـيرًا علىَ المسْلمين بعدَ وفاةِ الرسولِ ﷺ .

وكَانت بعــضُ القبــائلِ قد ارتدَّت عنِ الإسْــلاَم حينمَــا علمــتْ بوفَاةِ الرسُــول ﷺ وامتنع البعْضُ عن أداءِ الزكَاة، وظهرَ فــى ذلِكَ الوقْــتِ بعض من ادَّعُــو النبــوةَ مثْل: شُــرحْبِيلِ بن حَسَــنة، ومُسيْلَمَة الكذَّاب شــيخ قبيلةِ بنِى حَنيفَة باليمامَة.

وقدْ أمرَ سـيدُنا أبُو بكرٍ الصديق بمحاربـة مَانعِى الزَّكاة والمرتدِّينَ عَنِ الدِّين، والذينَ ادعُوا النُّبوّة، وقالَ عنْ مَانِعِى الزَّكَاة: واللهِ لوْ أنهُم كانُوا يؤدُّون عقَالَ بعيرٍ لرسُـولِ الله ﷺ وامتنعُـوا عن أدائـه لحاربتُهم عليْه، حتى يـؤدُّوا مَا كانُوا يؤدُّونه لرسُـولِ الله ﷺ، أمَا المرتدِّين عنِ الإسْـلام، فسوفَ أُحَاربهُـم حتّى يعودُوا إلى ديـنِ الله أو يحكُم الله بيننَا وبينَهم، وهُو خيْرُ الحَاكِمين،وأمَّا المتنبِّئُونَ فسَأبدأُ بِهم الحرب.. لأنهُم أرادُوا الفتنـةَ وأرادوا أنْ يُضِلُّـوا النَّـاس، ويخرجُوهُم عنْ دِينِهِـم بإدعائِهم أنهُم أنبيَاء، والله يعلَـمُ أنهم لكاذبُون، وأنَّ محمدًا رسُـول الله ﷺ خَـاتمَ النبيينَ، وقدْ بعثـه الله إلى الناسِ كَافة، وهو رحمةٌ للعَالمين ﷺ.

ووجّـه سـيدُنا أبُو بكـرٍ الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ جيشًـا لمحاربةِ (مُسـيْلَمة الكـذّاب) وكان هذا الجيـشُ بقيَادةِ سَـيْفُ الله خالـدُ بنُ الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرسَـلَ معهُ مجمُوعـةً منَ أبطالِ الإسْـلَام الصنَاديد الأقويَاء، منْهُم الـبراءُ بنُ مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وذلـكَ لعلْمِه بقوةِ جيشِ مسـيْلَمة الكـذَّاب (بنُوحَنِيفة)، حيث يرْبُو عددُهُم عَلَـى الثمَانِينَ ألف مقاتلٍ، التفُوا حولَ نَبيهم الكذَّاب، عَلَى أملٍ أنْ ينالُوا الشرفَ الذِى نالَتْه قرِيشٌ بظُهورِ الرسول ﷺ منهم.

كانَ جيشُ بنِى حَنِيفة يفوقُ جيشَ المسْلمين فِى الرجَال والسِــلاح، وكانَ محارِبُوهُم أشدَّاء، أقوياء مُدرَّبينَ علىَ القتالِ خــيرَ تدْرِيب، خاضُوا المعْرَكَة، واســتمَاتُوا فى القتَالِ دفاعًا عَن هذَا النّبى الكذَّاب مسيْلَمة.

وتقـدمَ المسْلمُونَ نحوهُم يدفعُونَهُم بسُيُوفهم وحِرَابِهِم وهُم يدَافعُون عنْ كَلِمَةِ الحقِ . . أنْ لا إله إلاَّ اللهَ وأنَّ محمـدًا رسُولُ الله ﷺ ، خَاتَمَ النبيين، وليسَ بعْده نَبِى أورسول.

ورغْم شراسَــةِ المعركَةِ وقوة الأعْدَاء، فإنّ المسلمِينَ ثبتُوا علَى إيمانِهِم بنصْرِ الله لهُم ، واستَبْسَلُوا فى قتَالِ عدُوِّهِم.

أمــا البراءُ بــنُ مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقدْ غلَبَ عليــه طبعُه فى الإندفَــاعِ نحوَ العدُو بلاَ هوَادةٍ أوْ تفْكِيــر، وانطلقَ مندفعًا كالســهْم المارقِ، والتقى بالموتِ فى خِضَمِّ المعْرَكَة وفردَ لــه الموتُ ذراعيْــه أكثرَ منْ مرَّة، فوجدَ أنَّ البراءَ يســعَى إليْه، ففرَّ الموتُ منْه، وترَكَه يصُول، ويجولُ بسَــيْفه بينَ المتحَارِبيــن، فَيَطِيــحُ برءوسِ المشْــركين المرتدِّين عَنِ الدِّين، وهُوَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَصيح: (الله والجنة).

واشتدَّ القتــالُ وبلغَ عنفُوانه وأخــذَ المــوتُ يقتطِفُ زهــراتِ شــبابِ المسْــلمين، وكان مِن بينِ مَن استشْــهدَ مِنْ جيشِ

المسْلِمين أغلبُ قرَّاء القُرْآن وحفَظَتُه، الَّذِين كانُوا يحفظُونه مِنْ رسُولِ الله ﷺ حينمَا كانَ يُوحِى بِه الله تعالىَ إليْه.

وهنَا أدرك قائدُ المسْـلمين خالدُ بنُ الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شـدَة المعْرَكَة وقال: لقد شَـهِدْتُ أكثرَ مـنْ مائة زحْفٍ (معركة) فلمْ أشـاهد أشَـدّ منْ هذِه المعْرَكَة وضرَاوَتها. وفكَّر القائدُ خَالـد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فى مخْرجٍ يخْرجُ به رجَالـه منْ هذَا المأْزق، وَنَظَـر فيمَنْ حوْلَه فوجَدَ فارسًـا جَرِيئًـا يخترقُ صفوفَ الأعدَاءِ غيرَ هيَّابٍ، ويضربُ فِيهم بسِيْفه يمينًا ويسارًا فأمعَنَ النظَرَ فِى الفارِسِ فإذَا بِهِ البرَّاءُ بنُ مَالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

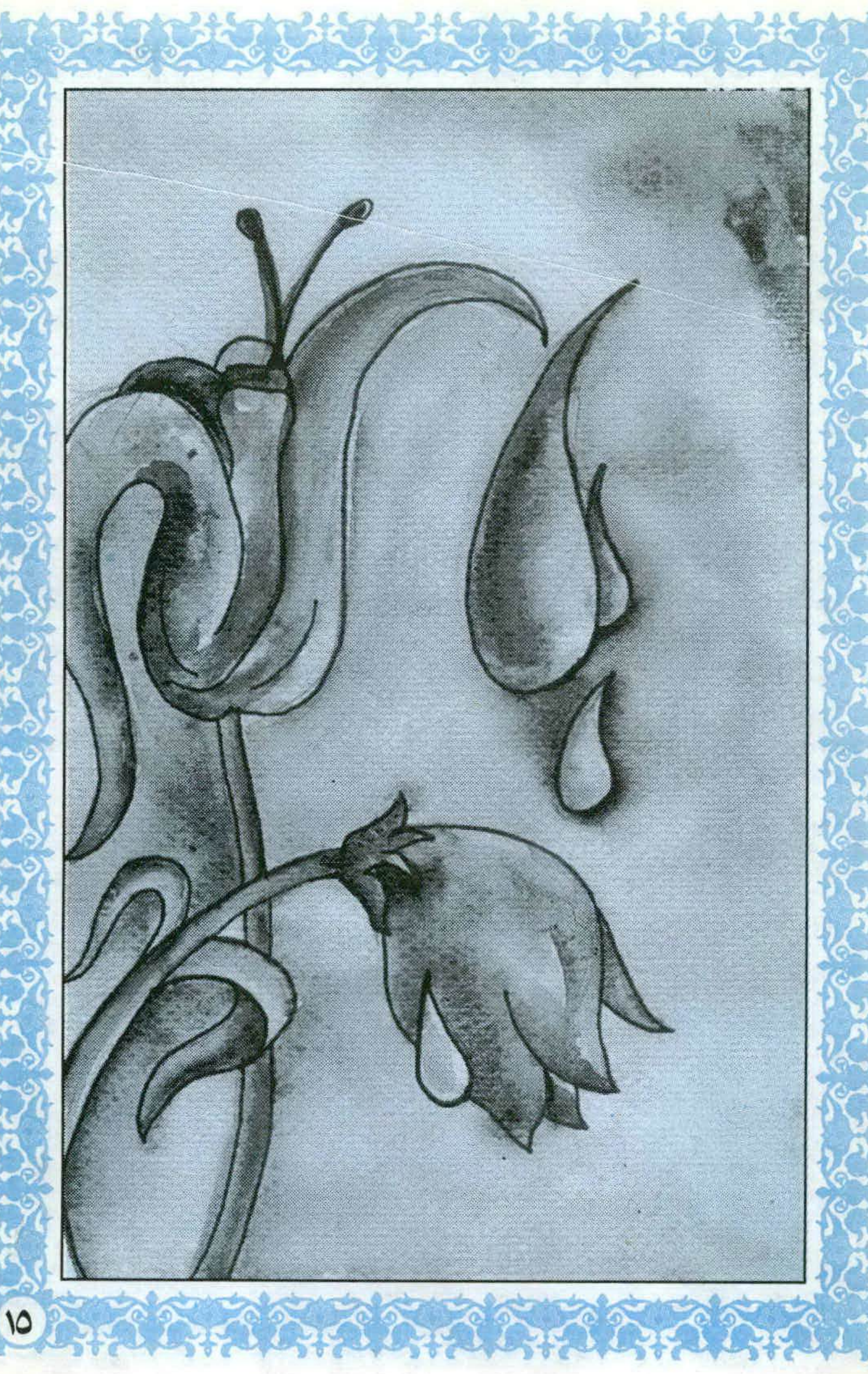
أثْنَى خالدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علَىَ شَـجَاعَة البرَّاء وجُرْأَتَهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكانَ خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعرفُ قوةَ صوْتِ البرَّاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وحلاَوَتِه، فأرادَ أنْ يسـتغلَّ هذِه المِيـزَةَ فى رفْعِ الـرُّوحِ المعْنَوِيةِ فِى نفُوسِ المسْلِمين فنَادَى البراءَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال لَهُ:

-يابرَّاء.. تحَدَّثْ إلى إخْوَانِك.. حُضَّهُم على البذْل والفِدَاء..

فارتقَى البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ربوَةً عَاليةً وصَاحَ فِى جنْدِ المسْلِمين:

- يا أهل المدِينَة، لا مدينَةَ لكُم اليوْم،إنّمَا هُوَ الله والجنة.

واشـتدَّ عزمُ المسْـلِمين عَلىَ أثَـرِ سَـماعِهِم كلِمَاتِه، واندفَعُـوا نحوَ العدُوِّ بسـيُوفِهِم ورمَاحِهِم، وقـوةِ إيمَانِهم فأَزاحُوهُ مـنْ أَمَامِهم، وجعَلُوا قواتَـهُ تترَاجَع، ثمّ يفِرُّون



هَاربِينَ مِـنْ أمَامِهِم، ويلُـوذُون بحديقةٍ كبيرَةٍ ذاتِ أسْـوَارٍ عَالِيَة، فيدخلُونَهَا، ويغلقُون عليهِمْ بابَهَا، فأندفعَ المسْلمُونَ خلْفهُم ويحاولُ بعضُهم فتحَ بابِ الحديقَةِ فيستعصِى فتحهَا، وحَاولَ آخرُ تسَلُّق أَسوارَها العَالية فلمْ يفلحْ.

وهنَا صاحَ البراءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بصَوْتِه القَوى :

- أيهَـا المسـلمُون احمِلُونى وألْقُـوا بِى مِنْ فوقِ سُـورِ الحدِيقَة، لعلّ الله يمكِّننِى منْ فتحِهَا لكُم.

ولكنْ كانَ كلٌّ منهُم فى شَـاغِلٍ عنْه، وكلٌّ منهُم حريصٌ عَلَى أن يفتحَ هُو الحدِيقَة، فلم يَصِلْ إليهِم صوتُه، فمَا كَانَ مِنَ البراءِ إلاَّ أنْ قفزَ مِنْ على ظهْرِ جوَادِه إلى سُورِ الحدِيقَة، وقفزَ معَهُ سماك بن خرشـة أبو دجانة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهبطَا معًا إلى الحدِيقَةِ واسـتلَّ كُلٌّ مِنْهُمَا سـيفَه وأخذا يقاتلاَنِ دَاخِلَ الحديقَةِ، قوات بَنِى حَنِيفَة، حَتَّى مكنهُمَا الله منْ أنْ يفتحَا بابَ الحدِيقَة فاسـتطَاعَ جيْشُ المسْلِمِين أنْ يهجمَ، ويدخُلَ الحدِيقَة، ويقاتِلَ فيهَا أعْدَاء الله وهزمُوهُم شرّ هَزِيمَة، ونصَرَ الله المؤْمنِين، وقُتِل مسيْلمةُ الكذّاب.

وقدْ حَسِـبَ البراءُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه سـينَالُ الشهادة داخِـل الحدِيقَـة بعْـدَ أنْ انهالتْ عليْـه ضربَاتُ السـيُوفِ

والرمَاح، حتى أُصِيبَ جسَــدُه بواحِدَةٍ وثمانِينَ ضرْبَةَ سيْفٍ ورُمْح، لمْ يمتْ مِنْ هَذِه الطعنَات.. وإن كانت قد أرْقدَتْهُ فِى الفِرَاشِ نحو الشهْر إلى أنِ اسْتردَّ عَافِيتَه.

وقدْ عــرفَ لهُ قائــدُه خالدُ بنُ الوليــد رضي الله عنه قدرَه فى القِتَال، فقامَ بتمْريضِه بنفْسِه خلاَلَ هذَا الشهْر، ولم يتخلَّفْ عنْه يومًا واحدًا، حتَى أتمّ الله تعالى شِفَاءَه.

كانَ الــبراءُ قــدْ وهبَ نفسَــه للدفَاعِ عَنِ الإسْــلاَم، وكَانَ تفكِيرُه أنْ يحيَا فِى طَاعةِ الله، وأنْ يرزقَه الله الشهَادَة، ويحظَى بالثوابِ الذى خَصّ بِه الله سـبحَانه وتعَالى الشـهدَاء، حيثُ جعلَهُم أحياءً فى جنّاتِه، وذلك تحقيقًا لقوْلِ الله تعَالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

(سورة آل عمران الآية ١٦٩)

ولذَلك كانَ تفكيرُ البراء ينحصِرُ فى شيْئيْن: العبادةُ بإخْلاَصٍ لله سـبْحَانه وتعَالى، والجهادُ فى سَـبيل اللهِ حتَّى الاستشْـهاد، والدليــلُ على ذَلِكَ أنه مَا كَادَ يشْـفَى مِنْ جِرَاحه الّتِى أصيبَ بهَا منْ حرْب (اليمَامة) معَ بَنِى حَنيفَةَ المرتدِّين، حتّى هرعَ إلى الجهَادِ فى سَبِيل الله مرّة أُخْرى، حينَمَا سمِعَ الدعوَةَ للجِهَاد.

وكَانَ ذلك بعدَ أنْ تُوفِّىَ سيدنا أبُو بكرٍ الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتولّى الخلافةَ بعدهُ سيدُنا عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فوجَّهَ الجيشَ لمحاربَةِ الظَّالمين وهم: إمبراطُوريّة الروم، وإمبراطُوريَّة الفُرس، اللتَان كانتا تتحكّمَان فى حياةِ الناسِ شرقًا وغربا، وتُعَاملاَنِ الناس بالقسْوة والوحْشيَّة والاستعْبَادِ وكانَ ضمْنِ جنُودِ هذا الجيشِ الأخوَان أنَس ابن مالك والبراء بن مالك، رضى الله عنهما، وكانت المعركَة دائرةً ضدَّ الفرْس فى العرَاق، وفى هَذِه المعرَكَةِ لجأ الفرسُ فى حَرْبهم معَ المسْلِمين إلى وسِيلةٍ وحْشيَّةٍ لمْ تُستعمَلْ منْ قبْلُ فِى الحروبِ لأنهَا ضِد الإنسَانية، حيثُ أتوْا بكلاَلِيب حَديديّةٍ ضخْمة ومثبتَةٍ فى أطرَافِ سلاسِل حدِيدية محمَاة بالنَّار، يلقونهَا مِنْ فوقِ أسَوارِ حُصُونهم العَالية عَلَى جنُودِ المسْلِمين فتنزلُ علىَ الشخْصِ منهُم فتمسِكُ بِه وترفعُه إلى أعْلَى الحصْن فيمْسِكُونَ بِه ويأخذُونَه أسِيرًا، وإذا حاول أحدُهُم أن يمسِكَ بسلْسِلَةِ الكلاَليب المحمَاة تحترِقُ يداه، وكانَ البراءُ وأخوهُ أنسُ بنُ مالكٍ قدْ وكلَ إليهمَا قائدُهُما معَ جماعَةٍ مِنْ جنُودِ المسْلمين بحصَارِ هـَذا الحصْن الذِى يلقِى الكلاليبَ مـِنْ فوقِه، عَلَى رءوسِ المسْلِمين فيتعلَّقُون بهَا ولايمكنهُم الفكَاكَ منهَا.. وعندمَا كانَ البراءُ يقودُ جماعةً منَ المسْلمين فى قتالِ جنودِ الفرسِ أمامَ الحصْن، وكانَ

أخُــوه أنــسُ يقودُ جماعــةً أُخْرى مــنَ المسْــلمين والقتَال دَائِر عَلىَ أشُـدّه.. فإذَا بإحْدَى هَذِه الكلاَليب تســقطُ على أنَسِ بنِ مالك، فيتعلَّقُ بهَا جسْـمُه ولا يســتَطِيعُ أنْ يمسِكَ السَّلْسِلَةَ المعلَّقِ بها ليخلِّصَ نفسَه منهَا إذْ كانتْ تتوهجُ نارًا وَلهيبًا. وأبصَرَ البراءُ المشـَهد، فأســرَعَ نحوَ أخِيه الذِى كَانت السَّلسِلَةُ المحمَاة تصعَدُ به علىَ سطْحِ الحصْن، فقبضَ علىَ السلسلَةِ بيديْه ورَاحَ يعالجهَا فِى قُوةِ وبأسٍ، حتَّى استطاعَ أنْ يقطعهَــا ويخلِّصَ أخَاهُ منها، ونجَا أنَس، ولكنْ كانت هناكَ مفاجَأة رهيَبة، فقــدْ ألقَى البراءُ نظَره هُو ومنْ معَه على يَدَيْــهِ فلمْ يجدْهما، فقدِ احْترقَ كُلُّ ما فيهِمَا منْ لحمٍ وبقَى هيكلُهما العظْمِىُّ أسْوَدًا.

حاوَلَ المسْــلمُون أنْ ينقُلوا البراءَ إلى خَيْمةٍ فِى الصفُوفِ الخلْفيَّةِ ليعالجَ مؤقتًا فيهَا إلَى أنْ ينتهُوا منَ المعركَةِ ثم ينقلُ إلى المدينَةِ ليكملَّ علاجَه بينَ أهْله هنَاك، ولكنَّ البراءَ رفَضَ أنْ يترِكَ المعركَةَ حتى تنتهِى، وهنَا يشــتدُّ عزمُ المسْـلمين، ويهجُمُون على الحصْــنِ هجمةَ رجُلٍ وَاحــدٍ، فيطيحُونَ بقــواتِ الفــرسِ المتمرْكزَةِ أمــامَ الحصْنِ تدافــعُ عنْه، ثم يتقدَّمُونَ نحوَ الحصْن، فيطيحُون بقواتِه ويتسلَّقُ بعضُهم أســوَارَ الحصْنِ علَى سَلاَلم خَشَــبية ويفتحُ أبوَابَه، ويدخُله المسْلِمُون مهلِّلينَ مكَبّرين.

وحينمَـا عادَ جيشُ المسْـلمِين إلى المدينَة منتصِرًا، وعلِمَ أمـيرُ المؤمنينَ عمـرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقصَّـةِ البراءِ بنِ مالك مَعَ الكَلاَليب المحمَاةِ بالنّار، ذهبَ إليه بنفسِـه ليطْمئنَّ عليْه، ثم أمرَ أنْ يُعَالَجَ مِنْ حُرُوقِه، ولا يسـمحُ له بالاشتِرَاك فى قتالٍ قبْلَ أنْ يُشْفَى تمَامًا.

تعَجَّبَ المسلِمُون لأنّ البراءَ لَمْ يمتْ منَ الواحِدِ والثمانينَ جُرحًا منْ ضربَاتِ السـيُوفِ والرمَاحِ فى حَرْب (اليمامة) مع مسيْلَمَة الكذَّاب، ورجَال قَبيلته بنِى حَنيفَة، وكذلك لم يمتْ مِنْ حَرْقِ يديْه فى حرْب الفرسِ بالعـرَاق، وتأكَّد الجميعُ أنَّ البراءَ لنْ يموتَ علىَ فراشِـه لأنهمْ سمِعُوه يدْعُو الله أن يرزُقَه الشهَادة وتوقعُوا أنَ يموتَ فِـى المعْرَكَة، وحيثُ إنهُ لم يمـتْ فى هَاتيْنِ المعْرَكَتـين (اليمَامة) (والعرَاق) فالله سبحَانه وتعَالى قد ادخَرهُ ليوْمٍ عظِيم، فى معركَةٍ يحققُ الله فيهَا للبراءِ دعْوَته، ويرزُقُه الشهَادَة.

كانَ الـبراءُ فى هذِه الفترةِ التى يعَالَجُ فيها منْ حَرْق يديْه قلقًا حائرًا متشَوِّقًا لقتالِ المشْرِكين، ومنَ العجيبِ أنَّ كفيْه شُـفِيَا بسُـرْعَة لم يتصورْهَا أحَد، ويترُكُ فِـرَاشَ المرَض، ويشْـحَذُ سـيْفَه مُسـتعِدًا للذهَابِ إلى المعْركَةِ ضِدَّ الفرْسِ أوالرُّومِ أعدَاء الإسْلام، وأعدَاء الإنْسَانيَّةِ عَامَّة، وظلَّ البراءُ علـىَ هذَا الحَـالِ، كُلَّ يومٍ يحمِلُ سـيْفَه مُتأَهِّبًا للقتَالِ فى

سَـبيل الله تعَالَى، ومنتظِرًا الإشارةَ له بالاستعْدَادِ للسَّفَر إلى أرضِ المعرَكَـةِ، حتَّى جَاءت الأخبَـارُ إلى أميرِ المؤْمنين عمرِ ابنِ الخطّاب، بأَنَّ الفرسَ قد حشَدُوا جنودًا كَثيرةَ العدَدِ فى الأهـوَازِ على حُدُودِ العرَاق ليأخُذُوا بثأرِهم مِنَ المسْـلِمين الذينَ هزمُوهُم فِى العرَاق.

ويأْمرُ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالاستعدَادِ لمحاربَةِ الفرسِ فـى الأهْوازِ، ويطوفُ أحدُ المسْـلمين بأمْرِ أمـيرِ المؤْمنين - يُنادِى بالجهَادِ فـى سَبيل الله -ويُلَبِّى البراءُ بنُ مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النِدَاءَ، ويقدمُ نفسَه وسيفَه لأميرِ المؤمنين عمرِ بنِ الخطَّاب، فيربـتُ الأميرُ على كتفِ البرَّاء، ويخبرُه أنه ولَّاه قيادةَ جيْشِ المسْـلمين معَ سُـهَيْل بنِ عَدِىٍّ فيبتسِـمُ البراءُ فرحًا بهذِهِ الفرْصَـة التى واتَتْهُ وهىَ قِيَـادَة الجيْش، ليفعلَ الأفَاعِيل، فى حربِ العدُو.

ثم يأمرُ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكتابةِ رسَـالةٍ إلى سعْد بنِ مَالِـك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أميرِ (الكُوفة) يأمرُه فيهَا أنْ يرسِـلَ إلى الأهْوازِ جيشًـا مِنْ عنْدِه لمسَاعدَةِ جيشِ البرَّاء وسـهيْل بـن عدِى، ثم يرسـلُ رسـالَةً أُخْـرى إلى أبِى مُوسَـى الأشـعَرِى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أميرِ (البصْرة) ليرسِلَ إلى الأهوَازِ جَيْشا، لمساعدَةِ جيشِ البرَّاء أيْضًا.

ويلْتقِى القادمُونَ مِنَ البصْرة بالقادِمِين منَ الكُوفة فِى الأهوَاز، ليواجِهُوا جيشَ الأهوَازِ وجيش الفرسِ فى معْركَةٍ ضاريَةٍ، كانَ جيشُ المسلِمين ثلاَثين ألفا، وجيشُ الفرسِ وأهلِ الأهوَازِ أكثرَ مِنْ مائةٍ وخمسِين ألفًا مُدعمينَ بالأسْلحَةِ الرهيبَةِ مثْل الفيلَة التى كانتْ تهاجمُ الجنودَ وتَطَؤُهُم بأقدَامِهَا.

وبدأت الحربُ بالمبارزَة،وتقدَّمَ البراءُ،وبارزَ صنَادِيد الفرْس، وتغلّب عليْهِم،حتّى أنهُ صرَعَ وحْده مائةَ مبارزٍ منَ الفرْس.

ثُم التحَمَت الجيوش، وكانتِ المعركَةُ بينَ المسْلمين والفرسِ غير متكَافِئَة، حيثُ كانَ المسْلمون كَمَرْكَبٍ صَغيرٍ يسبحُ فى بحْرٍ مِن جُنودِ الفرسِ والأهْوَاز، وراحَ القتلىَ يتساقَطُون منَ الفرِيقيْن، واستشْهَدَ منَ المسْلمين عدَدٌ كَبير.

وكانَ البراءُ يقاتلُ بسيْفِه بقوَّةٍ -لمْ يعهدْها فِيه المسْلمُون منْ قبْل، أدهشَتهُم- وكذلك أدهشَتِ الكُفَّار.

وازدادَ عددُ القتلَى فى المسْلمين.. وكادتِ الهزيمَةُ تحلُّ بهم لأنهمُ قَلِيلُوا العَدَد، والعُدَّة، وعدوُّهُم كثيرُ العدَدِ والعدَّة.

واقترَبَ أحدُ المجاهِدين منَ البرَّاءِ بنِ مَالك ونَادَاه قائِلاً:

- يابراءُ بنُ مالك.. أتذكرُ قولَ رسُولِ الله ﷺ إنكَ مُسْتجابُ الدعْوَة؟

أتذكرُ قولَه ﷺ : [رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذِى طِمْرَيْنِ لا يؤْبه له، لو أقسَمَ علَى الله لأبرَّه.. منهُم البراءُ بنُ مالك] يا برَّاء أقسِم علىَ ربِّك ليهزمَهُم، وينْصرنَا.

وهنَا توقفَ البراءُ عـنِ القتالِ قَليلا، وأخذَ يبحثُ ببصَرِه عَـنْ أخِيه أنسِ بـنِ مَالك، الذِى كَانَ يقاتـلُ معَه فى هَذِه المعركَـة، حتَّى رآهُ علَى مَقْربة منْه، فرفـعَ البراءُ يديْهِ إلَى السَّمَاء وقَالَ دَاعِيًا:

اللَّهُـمَّ اهزمهُم، وانصرنَا عليْهِم، اللهـمَّ امنحْنَا أكتافَهُم، اللهُـمَّ فنصركَ الـذِى وعـدْت، واجعلْهَا لِى يَارَب الشـهَادة، وألحقْنِى بنَبِيِّكَ ﷺ .

ثم ألقى نظْرةً على أخِيه أنسٍ وهو يُقَاتل، وكأنه يوَدِّعُه، ثم اسـتأنفَ قتَالَه، فكانَ كالأسَدِ الجسُورِ يصرُخُ فى الأعدَاءِ بصوْته فيرعبَهُم، ويضربَهُم بسيْفِه فيطيحُ برُءُوسِهِم

وكذلكَ فعلَ المسْـلِمُون.. فقد قاتلُوا ببسَـالَةٍ لم تعهدْهَا الدنيا، منْ قبلُ منْ غيرِهِم.

ونصَرهُم الله سبحَانه وتعالى نصرًا مُبِينًا.

ووسـطَ شـهدَاءِ المعْرَكَة، كان هنَاك البـراءُ مُلْقَى على الأرضِ وسـيفِه بجَانبه ممددًا قوِيًّا غَيْرَ مَلْثُومٍ (مكسور)،

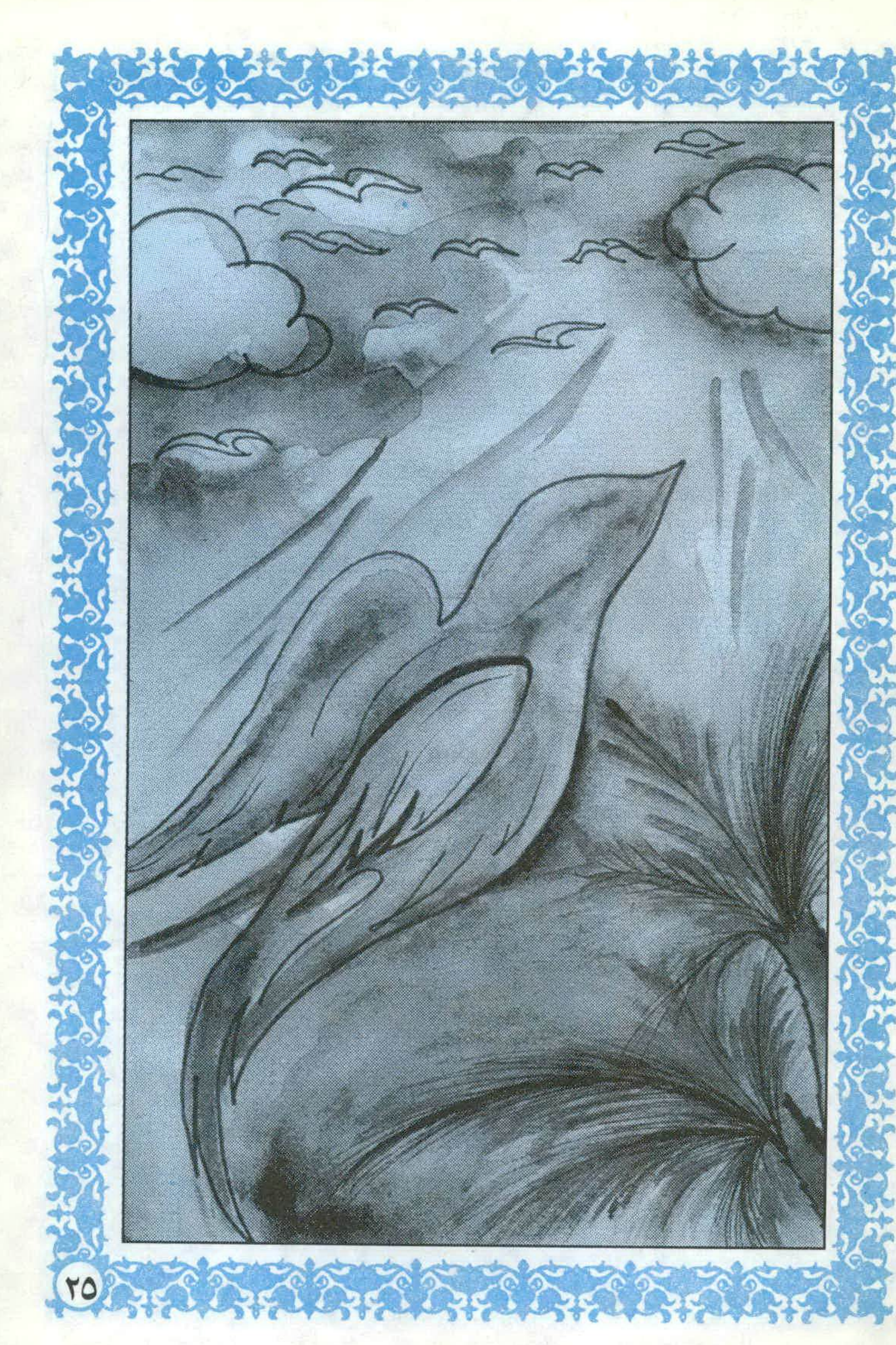
وسَـوِيّ غيرَ مكْلوُم (مثنى) ويقبضُ بيَـدِه على حِفْنَةٍ منْ تُرابٍ مُخَضَّبَةٍ بدمِه، الطَّهُور، وعلى وجْهِه ابتسَـامةٌ هَانِئةٌ، وهكَـذا اسـتجابَ الله للـبراءِ بنِ مَالـك دعْوتَـه أنْ ينصرَ المسلِمينَ ويجعلَها لُه الشّهَادة، وصدقَ الله القَائل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾

(سورة الأحزاب الآية ٢٣)

ورَضِىَ الله عَنِ البراءِ بنِ مالك، مستجاب الدعْوة، وعنْ أخِيه أنس بن مَالك خادِمِ رسُـولِ الله ﷺ ، وعـنْ أمّـِهِ (الرميْصَاء) أمِّ سليم بنت ملحان، التى حَاربت بخنجَرِهَا معَ رسُولِ الله ﷺ ، رَضِـىَ الله عنهُم، وأرضَاهُم، أجمعِين لجهادِهِم فى صُفُوفِ جيْشِ المسْلِمين.



أهم المراجع

١ - القرآن الكريم.
٢ - صحيح البخارى.
٣ - صحيح مسلم.
٤ - الطبقات الكبرى، لابن سعد.
٥ - الاستيعاب فى أسماء الأصحاب - لابن عبد البر.
٦ - الإصابة فى تمييز الصحابة - لابن حجر العسقلانى.
٧ - تاريخ الإسلام (المغازى) للذهبى.
٨ - حياة محمد - للدكتور محمد حسين هيكل.
٩ - المنتخب فى السنة-إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
١٠ - زعماء الإسلام - للدكتور حسن إبراهيم حسن.
١١ - تاريخ الإسلام السياسى-للدكتور حسن إبراهيم حسن.
١٢ - صور من حياة الرسول - لأمين دويدار.
١٣ - البداية والنهاية - لابن كثير.
١٤ - رياض الصالحين - للنووى.
١٥ - العقد الفريد لابن عبد ربه.
١٦ - مقالات للمؤلف نشرت بالأهرام والعمال سنة ١٩٨٢م.
١٧ - سير أعلام النبلاء - للذهبى.
١٨ - حياة الصحابة - لمحمد بن يوسف الكندهلوى.
١٩ - السيرة- لابن هشام.
٢٠ - تخريج الدلالات السمعية، لأبى الحسن على الخزاعى التلمسانى.
٢١ - موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى.